الفصل السادس

obeikandl.com

ما وراء السعادة: الرفاه

«هل من السعادة أن نستطيع حكَّ جلدنا حين نصاب بالحكاك؟ ثم نستمر بقية حياتنا في الحك».

من حوار بين سقراط وأفلاطون

الحاجة إلى ما هو أكثر من السعادة: ثلاث حالات

«كل ما أريده هو أن يكون أطفالي سعداء»، «سعداء قدر الإمكان، هذا كل ما في الأمر». يقول الناس غالبًا أشياء كهذه، فهل هم على حق؟ هل تُمثِّل السعادة كل ما يهمهم حقًّا؟ يمكننا أن نفهم سبب ميل الناس إلى التحدث بهذه الطريقة، وبوجه عام قد يُبدِع الأشخاص السعداء في شؤون حياتهم اليومية، ويكون أداء التعساء سيئًا. إن سعادتنا هي قضية مركزية في حياتنا، ولكنَّها قد لا تكون القضية المهمة الوحيدة أو حتى أكثرها أهميةً،

سنبحث الآن في مدى ارتباط السعادة بالحياة الجيدة، ونحاول الإجابة عن الأسئلة الآتية:

1. ما الذي يفيد الإنسان في نهاية المطاف؟
2. ما الذي يعنيه أن تُبدِع؟
3. ما طبيعة الرفاه؟

لا ينبغي الخلط بين مفهومي الرفاه والسعادة أو الصحة الانفعالية؛ فالرفاه مفهوم نفسي، شأنه في ذلك شأن مفاهيم السرور والتوتر والقلق، ولكنَّ الرفاه في نهاية المطاف هو مسألة قيمة:

1. ما بالنسبة إلينا؟
2. ما الحياة التي يجب أن نتمناها لأطفالنا؟

توجد أسباب عدَّة تجعلنا نُشكِّك في حقيقة أن السعادة هي الشيء الوحيد الذي يفيدنا في نهاية المطاف؛ إذ يبدو أن الرفاه يتطلب أكثر من السعادة، سننظر في ثلاث حالات مُشكِلة محاولين معالجة هذا الموضوع.

الخداع

تخيل أنك تعيش في عالم الغد؛ عالم التكنولوجيا المذهلة الذي اخترع فيه العلماء آلة تجارب فائقة التطور يمكنها محاكاة أي واقع تتمناه، هل

تريد أن تكون بول مكارتني (Paul McCartney)[1]، أو جاين أوستن[2] (Jane Austen)؟ أو: ما رأيك في السير على سطح المريخ؟

الأمر سهل جدًّا، فالآلة يمكنها إقناعك بأنك تقوم بهذه الأشياء كلها، وأنت لن تُميِّز الحياة في آلة التجارب من الحياة الواقعية؛ فما إن تدخلها حتى يلتبس عليك أمرها، ولا تُدرِك أنها محاكاة. افترض أن آلة التجارب نالت ثقة الجميع، وأن لديك فرصةً لاستخدامها، لا لقضاء أمسية فحسب، بل لتكمل فيها بقية حياتك، ستكون حياتك بدءًا من تلك اللحظة سعيدةً ومُرضيةً بقدر ما ترغب، فهل ستخوض غمار التجربة حقًّا؟ سيجيب معظم الأشخاص بأنهم لا يرغبون في ذلك ولا شك.

في دراسة جديدة شملت عشر دول حول العالم، رفضَتِ الأغلبية في كل بلد فكرة دخول الآلة، وكان معدل الرفض في معظم الدول يفوق نسبة (80) في المئة، حتى إن الناس وجدوا ذلك فكرةً مروعة، مستذكرين ذلك الواقع المرير في أفلام الخيال العلمي، أمثال: ماتريكس (The Matrix)، وترومان شو (The Truman Show)، أو بصورة أكثر واقعية، هل تريد أن تكون من الأشخاص الغافلين عن خيانة أزواجهم أو أصدقائهم؟ إننا بالتأكيد لا يمكن أن نحسدهم على ما هم فيه.

---

(1) السير جيمز بول مكارتني: مُغَنٍّ وموسيقي وشاعر غنائي بريطاني، وعضو في فرقة البيتلز السابقة. (المترجمة).

(2) روائية إنجليزية. (المترجمة).

مـن الواضـح أن معظـم الأشـخاص يهتمون بأشـياء أخرى غـير حالتهم الذهنيـة، ويبدو أن مـا يريدونه حقًّا هو النجاح في تحقيق أهدافهم، وإنجاز مـا يطمحـون إليـه، وامتـلاك أصدقـاء وعائلـة؛ إنهـم يبحثون عن السـعادة الحقيقيـة، تلك السـعادة التي لا تسـاورها الأوهـام والأحلام، وإنما تسـتند إلى أرض الواقع، فمن الأفضل لهم أن يعيشـوا بقدر أقل من السـعادة ضمن حياة واقعية.

اقـترح الفيلسـوف روبيرت نوزيك فكرة آلة التجـارب عام 1974م، وقد كان لهـا صـدًى مُـدَوٍّ، ونُظِر إليهـا بوصفها دليلًا على أن السـعادة والحالات الذهنية الأخرى لا يمكنها أن تكون المقياس الوحيد لرفاه الإنسان.

العَوَز

يقول أفلاطون في محاوراته السـقراطية إن سـقراط جعلنا نتخيل حياةً بسيطةً من دون ريب؛ شخص راضٍ بأن لا يقوم بأي شيء سوى حك جلده.

11- طفل يبدأ حياته في آلة التجارب، في فيلم (ماتريكس).

هـذه هي خلاصـة حياته، هل هذه حياة يُحسَـد عليها؟ قـدَّم راولز مثالًا مشـابهًا عن مسـاحة خضراء، رأى فيه أن المرء يكون سـعيدًا بِعَد الأعشـاب فقـط طـوال اليوم، ولكنَّ معظم النـاس يجدون هذه الحياة مملـةً بل كئيبةً، لا توجـد حياة سـطحية مملة بائسـة مثل هذه؛ فالبشـر يعتقـدون أن الحياة الغنيـة بالتجارب، ذات الأنشـطة المتنوعة هي الفضلـى، حيث يمكنك القول إنني عشْتُ حياةً حقيقيةً.

وفي المقابل، فإن قلةً من الأشـخاص يحلمون بأن يكونوا كسولين مُتْخمين يُبدِّدون أوقاتهم في عزلة عن النـاس، ويحظون بوسـائل ترفيه رخيصة، ولا يعملون أي شيء ذي قيمة، تخيل ذلك الشخص الساذج الذي يُمضي حياته في قبو قذر لا يفعل شيئًا سوى مشاهدة التلفاز وألعاب الفيديو، معتمدًا على المال الذي ورثه، هذه هي الحياة السـلبية التي تسـعى إلى المتعة واللذة التي رفضهـا أرسـطو لأنهـا تصلح فقـط للحيوانات الغبية؛ حيـاة المدمنين الذين يقضـون أيامهـم باحثـين عن جرعـات إضافية مـن المخـدرات. تُظهِر بعض الأفلام المعاصرة، مثل (Wall-E) و (Idiocracy)، مزيدًا من التفاصيل عـن هذا الموضوع، ولا أعتقـد أن هناك الكثير من الأهالي الذين يرغبون في حياة كهذه لأبنائهم.

ربمـا يبـدو كلٌّ من الشـخص الحـكَّاك، والسـمين الكسـول مُنفِّـرًا؛ لأننا نُفضِّـل الشـخص الذي يسـعى إلـى تطوير قدراتـه ومعارفه؛ لـذا فمن المهم تطويـر قدراتنـا وإمكاناتنـا، وملاحظـة كيـف يُشـار بالبنان إلى الشـخص النشـيط صاحـب الهمَّـة العاليـة، حيـث يبـدو كلٌّ مـن الشـخص الحـكاك،

والكسول، والمدمن كمَن يُبدِّد طاقته؛ فمهما بدت حياة هؤلاء سعيدة بما يقومون به فإن طابع السكون والوحشة والفقر يُخيِّم عليها.

الحرمان

بروك غرينبرغ فتاة في العشرين من عمرها، لكنَّها تبدو طفلةً؛ فهي مصابة بمتلازمة نادرة جدًّا تدعى متلازمة X، ويبدو أن نموها الفكري والجسدي قد توقف في مرحلة الطفولة، وبالرغم من ذلك فلا سبب يجعلنا نعتقد أن هناك ما يمنعها أن تكون سعيدةً. لدى بروك عائلة لطيفة تحبها وترعاها وتَعُدها نعمةً عظيمةً كما هي، قد نقول عن غرينبرغ في أثناء الأوقات التي تكون فيها سعيدةً إنَّها تعيش حياةً جيدةً، ومع ذلك من الصعب الهروب من الشعور بأن هذه الفتاة التي لن تصل مرحلة النضج تفتقد عناصر أساسية للحياة الطبيعية الكاملة، وهو أمر يدعو إلى الأسف ولا شك.

يجب توخي الحذر هنا؛ فأنا لا أقول إنَّ هذه المشكلة تجعل الإنسان أو الحياة أقل قيمةً أبدًا، ولا إنه يتعذر على بروك القيام بالأمور على نحوٍ جيد، ولكن ما يزال هناك القليل من مشاعر الأسف لحالتها، نحن الذين لدينا أقارب أو أصدقاء من ذوي الحاجات الخاصة نعرف حقًّا مشاعر الغضب والشفقة التي يُنظَر بها إليهم، ومع ذلك يمكن لهؤلاء الأشخاص أن يعيشوا حياةً مُفعَمةً بالحيوية والنشاط، ويُؤثِّروا إيجابًا في حياة عائلاتهم؛ إذ يُظهِر هؤلاء الأشخاص غالبًا أفضل ما لديهم، ما يجعلهم -أحيانًا- أكثر تركيزًا منا على ما يهمهم.

ولكن، قد يبدو الأمر سخيفًا إذا أصررنا على عدم وجود جانب سلبي للإعاقة؛ ففي حالة مثل متلازمة X وبعض الحالات الأخرى مثل العمى، قد يُخيَّل إلينا الحالة أن الشخص المصاب قد حُرِم أحد مقومات الحياة الأساسية، وهذا أمر محزن ولا شك، وقد نقول الشيء نفسه عن شخص توفي في ريعان شبابه من دون أن يتزوج مثلًا، أو نتذكر حالة بوب بيكهام الذي أمضى سني حياته في السجن من دون رؤية أبنائه يكبرون.

يشعر الكثير منا بأن هذا النوع من الحرمان هو خسارة لا يمكن تعويضها؛ فالكاهن أو الراهب الذي يؤدي قسم العزوبة مثلًا، قد يعيش حياةً سعيدةً مُفعَمةً بالحيوية والنشاط، ربما يظن أنه كسب الكثير مقارنةً بما خسره، ولكنَّه ـ مع ذلك ـ سينظر إلى الأمر بوصفه تضحيةً لا يمكن تعويضها بأي شيء آخر.

فمهما تكن حياة الشخص جيدةً فإنه يوجد ما يُعكِّر صفوها، ولا بد من وجود خسارة يصعب تعويضها إذا لم يستطع التمتع بإحدى مباهج الحياة، قد لا يكون مهمًّا فقط أن تكون سعيدًا، وإنما المهم أيضًا أن تعيش حياةً كاملةً من دون أن تفقد شيئًا منها (لاحِظ أن الحرمان لا يعني عجزك عن عيش حياة تامة أبدًا؛ فالحياة التامة الكاملة، شأنها شأن أي شيء آخر، لها درجات عدَّة. فبالرغم من أن العزوبية الكهنوتية تتجرع كأس الحرمان إلا أن الكثير من الكهنة يعيشون حياةً حافلةً بالنشاط والعطاء).

لا يتفق الجميع على أن هذه الحالات الثلاث مقنعة؛ فبعض الناس ينظرون إليها نظرةً مختلفةً، والكثير من نظريات الرفاه، ومنها نظريتي، تعرضت لواحدة ـ على الأقل ـ من هذه الحالات، قد يقع أحيانًا سوء فهم لردود أفعالنا البدهية؛ لذلك علينا تناول هذه الحالات بشيء من الحذر.

ما الذي ينفع الإنسان في نهاية المطاف؟

مقدمة أرسطو

لا نجد فيلسوفًا أهم من أرسطو عالج موضوع رفاه الإنسان في الفكر الغربي بمنأى عن الدين؛ فقد ظلَّتْ آراؤه حيةً حتى يومنا هذا، وقد يكون مفاجئًا بعض الشيء أن تظل هذه الآراء قائمةً حتى اليوم بعدما أصبحت آراءً غير عصرية. يُعرِّف أرسطو مفهوم الرفاه أو اليودايمونيا (eudaimonia)[1] بأنه الحياة الكاملة لنشاط فاضل؛ فالفضيلة عند أرسطو ليست مجرد فضيلة أخلاقية كما نعرفها اليوم، وإنما هي سمو أو امتياز إنساني، لا يقتصر فقط على الفضائل المعروفة كالعدل والشجاعة، وإنما يشمل أيضًا موهبة الكلام والارتجال وقول الدعابات والطُّرَف، والحفاظ على كرامتك.

وبحسب مصطلحات هذا العصر، فقد يكون مصطلح (امتياز) أكثر دلالةً من لفظ (فضيلة). ولما كان الحديث مقصورًا على التميز البشري، فإن معيار الفضيلة لدى أرسطو لم يكن شخصيًّا، وإنما كان مُتجذِّرًا في

(1) اليودايمونيا: القدرة على فعل كل ما تستطيع، وأداء كل ما هو كامن فيك. وتتلخص فكرة اليودايمونيا في العيش بطريقة تتيح لك الإفادة من إمكاناتك جميعها، بحيث تصل إلى حالة من السعادة والمتعة، فتظهر على صورتك الحقيقية التي جُبِلْتَ عليها. (المترجمة).

مسلَّمات الطبيعة البشرية، فالتميز عنده واحد؛ ولهذا فإن العمل في جمع الزجاجات الفارغة أو العمل في الاستثمارات المشبوهة لا يدخل ضمن هذا التميز. لاحِظ أن أرسطو لم يربط الحياة الجيدة بالفضيلة أو الامتياز؛ إذ يمكنك أن تنام كما في قصة الجمال النائم، وأن تكون شخصًا جيدًا في الوقت نفسه. ولكن، مَن يحتاج إلى عمل ذلك؟ يمكن الاستعاضة عن ذلك بالحركة والعمل؛ فالحياة الجيدة قوامها النشاط والحيوية، والأمر أشبه بأن تعمل شيئًا ما بدلًا من السعي للوصول إلى حالة معينة.

دعونا نُوضِّح الأمر بصورة أكثر دقةً: لا يُعد الفقر سببًا لتخليك عن الفضيلة، لكنَّه قد يُعرقِل طريقك إلى السمو أو الامتياز الإنساني؛ فعندما يكون خيارك الأفضل هو أداء عمل رتيب لقاء أجر زهيد مدة (90) ساعةً في الأسبوع، فإن فرصتك في التحليق عاليًا تقل، ولن تستطيع الإفادة من قدراتك كلها. يرى أرسطو أن الفقر سيئ لأنه يحد كثيرًا من طاقات الإنسان، ويمنعه من أن يحيا حياةً إنسانيةً، ويهوي به إلى منزلة الحيوان الذي يكافح للبقاء حيًّا.

يرى أرسطو أن الحياة الفاضلة لا تكون إلا بالإفادة من طاقات الإنسان جميعها، ما يساعده على صقل شخصيته، ويجعله ينعم بحياة سعيدة كاملة؛ إنها أسعد حياة يمكن أن يعيشها الإنسان، وفي الحقيقة فإن هذه الفكرة تروق لمعظم الأشخاص، حتى إن الثقافة المعاصرة تزخر بالكثير من الشواهد على هذا الموضوع، فكثيرًا ما تسمع عباراتٍ تشجيعيةً، مثل: «اعمل بأقصى ما تستطيع».

يكمن جوهر الموضوع في تعرُّف ما هو أفضل لنا لنكون على طبيعتنا وسجيتنا، وبالرغم من وجود طرائق عدَّة تتيح للإنسان أن يتصرف بحسب طبعه وسجيته، فإن طريقة أرسطو هي أفضل الطرائق المعروفة؛ فالمثل الأعلى (أن تحيا على طبيعتك) كان واسع الانتشار أيام الإغريق القدماء الذين كتبوا عن (اليودايمونيا)، ويمكننا أن نُطلِق على الآراء المتعلقة بالرفاه مصطلح (النظريات اليودايمونية)، وقد لاقت هذه الآراء قبولًا لدى علماء النفس في عصرنا هذا، مُمهِّدةً الطريق لنشوء حركة علم النفس الإيجابي ('eudaimonic' psychology).

لعل أعظم فضائل مقاربة أرسطو لموضوع الرفاه هي أنه يُقدِّم شرحًا شائقًا لمفهومنا البدهي للحالات الثلاث التي ناقشناها آنفًا (الخداع، العَوَز، الحرمان)، فأنت لا تمارس أي عمل في آلة التجارب، والشخص الحكاك يُمثِّل نقيضًا للمثالية الأرسطية، وبعض الإعاقات تحول دون ممارسة أصحابها حياتهم بصورة فاعلة. ما تزال نظرية أرسطو المتعلقة بالرفاه محل جدل عميق، فبعضهم لا تعجبه هذه الموضوعانية (objectivism)[1] التي تتضمنها النظرية؛ إذ يعتقد أرسطو أن هناك حقائقَ موضوعيةً عما هو جيد بالنسبة إليك، وهذه الحقائق لا تعتمد اعتمادًا كاملًا على ما تحب.

يرفض الكثير من الباحثين هذه النظرية، ويرون أن الرفاه هو مسألة شخصية أو غير موضوعية. توجد أيضًا مشكلة أخرى أكثر عمقًا؛ فأنا أعتقد أن الرأي الأرسطي يقوم على معايير خارجية لرفاه الأفراد، وأن

(1) الموضوعانية: إحدى النظريات الفلسفية التي تُؤكِّد الحقيقة الموضوعية بوصفها متميزةً عن الخبرة الذاتية. (المترجمة).

الجيد بالنسبة إليك هو أن تعيش حياةً إنسانيةً مميَّزةً؛ فالجيد بالنسبة إلى الثور ـ مثلًا ـ هو أن يعيش حياةً مميزةً بالنسبة إلى تكوينه الحيواني، وأن يقوم بما يقوم به الثور غالبًا. ولكن، لماذا يرتبط فهمنا للرفاه بالنوع الذي ننتمي إليه؟

لنأخذ الثور فرديناند من قصص الأطفال مثالًا على ذلك؛ إنه ثور غريب نوعًا ما، لا يرغب في عمل ما يقوم به الثور من قتال وأشياء أخرى، بل يُفضِّل شم الأزهار، لمَ لا؟ مغزى القصة هو أن الكائن الحي قد لا يلتزم بأداء ما يقوم به أبناء جنسه؛ فجوهر المسألة هو أن تفعل ما تحب ممارسته، انظر الشكل رقم (11).

12- الثور فرديناند.

قد يعتقد القارئ أن مغزى قصة فرديناند لا تناسب طرحنا لموضوع متلازمة X؛ إذ كيف يمكننا القول إن متلازمة X تحرم الشخص شيئًا ما إذا لم نُطبِّق معايير خارجية تتضمن مقارنته بالإنسان الطبيعي؟ وفي هذا

الشـأن، فإن وجهة نظر أرسـطو تُوضِّح حالة متلازمة X، في حين أن المقاربة التي أُؤيدها فاعلة أكثر بالإشارة إلى حالة فرديناند.

توجـد فئـة معارضـة لمـا يراه أرسـطو مـن أن الرفاه هـو مسـألة فضيلة. ولكن، هل هذا صحيح؟ لقد كان جنكيز خان شخصًا فاسدًا، ذبح الملايين، واغتصـب كثيـرًا مـن النسـاء (واحد مـن كل (200) شـخص يعيش اليوم ينحـدر منـه مباشـرةً). ولكـن، لمـاذا لم يكـن جنكيز خـان سـعيدًا، أو حتى متميـزًا؟ إذا أخذنـا صفـة قابليـة الإنسـان للإقـدام على القتـل فربما يكون جنكيز خان نموذجًا للتميُّز البشري.

إن الفضيلة شـيء مهم جدًّا، لكنَّ الكثير من الشـكوك تحوم حول مقولة أرسطو بأن الفضيلة تفيدنا حتمًا.

نظريات الرفاه

فيما يأتي أهم النظريات التي تناولت موضوع الرفاه:

1. نظرية اللذة أو المتعة.
2. نظريات الرغبة.
3. نظريات التصنيف.
4. النظريـة الإيجابيـة (اليودايمونيـا Eudaimonistic) (الحيـاة الحافلة).

ناقشنا آنفًا النظرية الإيجابية (eudaimonistic theory) لأرسطو، وسـنتعرض الآن لنظرية اللذة أو المتعة؛ يدَّعي مؤيدو هذه النظرية أن المتعة

هي الشيء الوحيد الجيد بالنسبة إلى الإنسان، مُؤكِّدين أهمية الاستمتاع والمعاناة في حياة الإنسان، لكنَّ ذلك يصطدم مع واقع الحالات الثلاث التي بدأنا بها هذا الفصل (الخداع، العَوَز، الحرمان).

أما نظريات الرغبة فتُؤكِّد أن الجيد بالنسبة إليك هو أن تنال ما تريد، وهي وجهة نظر شائعة جدًّا، خاصةً في أوساط الاقتصاديين الذين يعطونك السلطة لتُقرِّر الجيد، ومن الملاحظ أن آلة التجارب تتناغم مع هذه النظرية لأنك لن تحصل على ما تريد حقيقةً، وتعتقد أنك حصلت عليه حقًّا في هذه الحياة، أما يُؤخَذ على نظريات الرغبة فهو عدم قدرتها على تفسير الأخطاء بصورة دقيقة، فلا يخفى على أحد أن معظم الأشخاص يرغبون غالبًا في عمل ما هو غير جيد من وجهة نظرهم، مثل: الرغبة في مواعدة شخص تَبيَّن فيما بعدُ أنه أحمق، والرغبة في العمل في مهنة المحاماة، ولا يمكننا القول في الوقت نفسه إن ثمة نقصًا يعتري حياة الشخص الحكاك البائسة على ما يبدو، أو حياة العبد الذي يؤمن بعبوديته، فضلًا عن بعض حالات الحرمان التي لا يرغب فيها الأشخاص في الأشياء التي يفتقدونها (مثل متلازمة X).

وأما نظريات التصنيف فتُحدِّد الرفاه بقائمة من الأمور الموضوعية، مثل: المعلومات، والإنجازات، والصداقة، والمتعة، وإذا كان ينقصك شيء من هذه القائمة، فإن رفاهك يكون منقوصًا، حتى لو لم ترغب في ذلك الشيء، وتمتاز هذه النظريات بأنها تتيح للمرء إضافة ما يعتقد بأهميته إلى القائمة، ما يُسهِّل معالجة الحالات المُشكِلة، لكنَّ الخلل هنا يكمن في عدم مناسبة الشيء المضاف أحيانًا، وفي عدم مواءمته لطبيعة الرفاه.

لا تحسـم أيٌّ مـن هـذه المقاربـات الأمـر بوضـوح؛ إذ يسـتمر مؤيدو هذه النظريات في دفاعهم المستميت عن وجهات نظرهم، رافضين البدهية التي تناولناهـا؛ لاعتقادهـم أن البدائـل المطروحـة هي أسـوأ أيضًـا، أو محاولين معالجـة موضـوع البدهية والحدس من منظورهـم؛ فمؤيـدو نظرية الرغبة -مثـلًا- يطرحـون غالبًا فكـرة أن الرغبـات المعلومة والعقلانيـة هما كل ما في الأمر، لكنَّ المخاوف الأساسـية لم تُدحَض بعدُ، والنظريات المعدلة لديها مشكلاتها الخاصة أيضًا.

يـرى الحداثيـون أن مفهـوم (اليودايمونيـا) يعنـي تحقيق الـذات، لنعد قليلًا إلى المقاربة الإيجابية (اليودايمونية)، ربما نجد نظريةً تُؤيِّد ما ذهب إليه أرسطو من وجوب تحقيق الذات، والبُعد عن التكلُّف والمغالاة، والالتزام بالموضوعيـة؛ ففـي مقالـة الفيلسـوف البريطـاني جون سـتيوارت الشـهيرة عـن قيمة الفرديـة في مفهوم الحرية، يتعرض هذا الفيلسـوف لمثالية فردية أكـثر حداثـة يمكن تسـميتها تحقيق الذات؛ أي أن تعيش وَفقًـا لما أنت عليه، وبحسـب هذه المثالية الفردية فإن الرفاه هو مسـألة شـخصية فردية خاصة بك، بصرف النظر عن السبل التي تنتهجها لتحقيق رفاهك.

فالطبيعي بالنسبة إلى الناس من وجهة النظر هذه لا يتعلق بما هو جيد بالنسـبة إليك، وكذا ما هو طبيعي بالنسـبة إلى الثيران لا يُعد مهمًّا بالنسبة إلـى فرديناند، المهم هو ما تحبه أنت وحسـب؛ فقد تُولـد وأنت تعاني مرضًا معيَّنًـا، ولكنَّـك تبقـى أنت في نهاية المطاف، فالأسـاس هو شـخصية الفرد، والشخص المريض قد يتميز بأن يحيا كما هو، ويُحقِّق ذاته كما هو.

لـن أحـاول تقديم نظريـة كاملة عن تحقيـق الذات هنا، لكنَّ الفيلسـوف ليونـارد وايـن سـمنر (L. W. Sumner) ربمـا يكـون قد أشـار إلى طريق تصـل بـه إلى السـعادة؛ إذ يُعـرِّف الرفـاه بأنه سـعادة أصيلة، وهي سـعادة نابعـة من داخلك، تُعبِّر عن مكنونات نفسـك، وتُمثِّل شـخصيتك الحقيقية، فالسـعادة في آلـة التجـارب ليسـت أصيلةً؛ لأنها ليسـت متجـذرةً في حياتك الواقعية، وكذلك الحال بالنسـبة إلى سعادة العبيد، والضحايا من مغسولي الدماغ؛ إذ تعكس السعادة لديهم قِيَمًا ليست خاصةً بهم في الحقيقة.

قـد يكـون لمفهـوم الأصالة أثر مهـم في تأكيد الهواجـس المتعلقة بتقنيات تحسـين الجنـس البشـري، مثـل: حبـوب الأخلاق التـي تجعل منك شـخصًا أفضـل، أو الهندسـة الجينيـة التـي تجعل أطفالـك أكـثر ذكاءً، إن مثل هذه التدخـلات قـد تُقوِّض مفهـوم الأصالـة، فربما يجعلـون ـ مثـلًا ـ أفعالك أو عواطفـك غريبـةً عنـك، وقد تلقـى هـذه القضية اهتمامًـا كبـيرًا في العقود القادمة.

وبصـرف النظـر عما ينطوي عليه مفهوم تحقيق الـذات، فإنني أفترض أنـه يحتـوي ـ ضمنًـا ـ على فكرة السـعادة الأصيلة، وقد ينطـوي كذلك على النجاح في الأمور التي تُعنى بها، والقيم والالتزامات التي تُحدِّد هويتك؛ فأن تكـون أبًا أو فيزيائيًّا ـ مثلًا ـ هو جزء من هويتك، وأداؤك الجيد يعتمد على نجاحـك في دور الأب، أو الفيزيائـي، أو الطبيـب، ... . قـد لا يُقـدِّم لنا ذلك نظريـةً كاملـةً عن الرفاه، ولكن يجـب أن يكون ذلك كافيًا لنا لنرى أين تقبع السعادة في الصورة الكبيرة، وبصرف النظر عن النظرية الصحيحة للرفاه فإن أثر السعادة الفاعل في تميُّز الإنسان ظاهر بوضوح. مَن يُصدِّق هذا؟

أشارت إحدى الدراسات في صحيفة صوت الريف (Village Voice) إلى أن سكان نيويورك هم أكثر الأشخاص شقاءً في أمريكا (لأننا نعمل كثيرًا، ونقرأ الكتب، خلافًا لسكان الريف الأغبياء الكسالى)، وترى الدراسة أن سكان لويزيانا وباقي الولايات هم أكثر سعادةً من سكان نيويورك، فهل يعني ذلك أن سكان لويزيانا أفضل منهم؟ سيجيب بعضهم بالإيجاب، ويجيب بعض آخر بالنفي، غير أنه لا يوجد اختبار يمكنه سبر هذه المسألة؛ لأنه ثمة خلاف على القيم، فقد يعطي سكان نيويورك قيمةً أعلى للإنجاز والعمل، ويعطي سكان لويزيانا قيمةً أعلى للاستمتاع بالوقت؛ إنه الفرق بين المثابرين ومحبي الاستمتاع (النملة والجندب).

وبوجه عام، يمكن لإحدى النظريات الفلسفية التي تُعنى بالرفاه الفصل في المسألة، فإذا أثبتت هذه النظرية أن الإنجاز والعمل هما أكثر أهميةً للرفاه من الاستمتاع، فإن الكِفَّة تميل إلى جانب سكان نيويورك، ما يعني أنهم أفضل من سكان لويزيانا، وبالرغم من ذلك فإن فكرة القيم تبقى غامضةً؛ إنها ليست شيئًا ماديًّا، فنحن مثلًا يمكننا إدراك الفرق بين الإلكترون والفيل بوصفهما عناصر مادية خلافًا للقِيم التي لا نعرف منشأها أو مكانها، فلماذا يفترض بنا أن نثق بنظرياتٍ يضعها فلاسفة من هنا وهناك وهم جالسون في أمكنتهم؟ لا يوجد جواب شافٍ بخصوص موضوع نيويورك- لويزيانا؛ إنها مجرد مسألة رأي.

وحتى نُبدِّد مخاوف المتشككين، ولا نحيد عن الطريق الصحيح؛ يمكن الإجابة عن السؤال المطروح إجابةً مقتضبةً بافتراض أن القيم هي نتاج

العقل الإنساني الصرف الذي يُسقِط قيمه على العالم، وتأسيسًا على ذلك يمكن الحكم على الأمور، وتمييز جيِّدها من سيِّئها، وصحيحها من خطئها تبعًا لنظرتنا إليها.

أعتقد أن هناك مجموعةً مميزة من القيم الصحيحة، وأعتقد أيضًا أن الناس كافة سيتفقون على هذه القيم؛ لأنها تخص ـ نوعًا ما ـ الأشخاص الذين نتحدث عنهم، ولكن ربما تكون هناك حدود صارمة لبعض القيم بحيث تصمد أمام التفكير والتأمل في حقيقتها، أعني بذلك القيم المستدامة الانعكاسية، وحتى لو كان هناك أكثر من جواب صحيح، فإن الأجوبة غير الصحيحة كثيرة ولا شك؛ فمثلًا: سيقول الكثير من الأشخاص إنَّ السعادة هي مرادهم الوحيد، لكنَّ لحظة تأمُّل في فكرة آلة التجارب أو الشخص الحكاك ستدفع الكثيرين إلى الخوض في هذا الموضوع حتى يحتدم النقاش فيه؛ ما يُؤكِّد خطأ اعتقاد هؤلاء بأن السعادة هي هدفهم الأسمى ومطلبهم الوحيد.

يمكن النظر إلى الموضوع نظرةً أخلاقيةً تخص طرائق معاملة الحيوانات؛ إذ يُجمِع الكثير من الأمريكيين اليوم على جملة من الآراء بهذا الشأن، مثل شراء لحوم الأبقار والضأن من المتاجر، ثم تناولها بعد طهيها، خلافًا للكلاب والخيول التي يُعد ذبحها وتناولها تصرفًا غير أخلاقي إطلاقًا، لا أعلم الكثير عن الأخلاقيات المتعلقة بتناول لحوم الحيوانات، لكنني أعتقد أن اتباع نظام غذائي يشتمل على كميات معتدلة من اللحوم هو أمر مقبول أخلاقيًّا.

فأن تقتل الغزال بامبي (من أفلام الرسوم المتحركة Bambi)، وتستخرج دماغه، وتسحق عظامه، هو فعل إيجابي لا يُؤثِّر سلبًا في البيئة والإنسان حيث أعيش، وقد تكون هذه الوجبة صديقةً للبيئة، وأكثر إنسانيةً من غيرها مقارنةً بالوجبات التي تتناولها طوال العام (تؤدي زراعة المحاصيل إلى قتل أعداد كبيرة من الحيوانات الصغيرة، في حين تُمثِّل اللحوم الاصطناعية كابوسًا بيئيًّا وصحيًّا وإنسانيًّا).

قد تخالفني الرأي في هذه المسألة، ولكنني أتحدى القارئ أن يُوفِّق بين المجموعة الأولية من الآراء، ولا يسعني في هذه العُجالة سوى اقتراح وسيلة غير منطقية لجعلها متسقةً، علمًا بأن المواقف الأخلاقية لكثير من الأشخاص في هذه المسألة هي مزيج غير مترابط من العواطف الجياشة، وقليل من الحِلم والرَّوِيَّة.

قد يكون للتأمل الفلسفي أثر إيجابي في مثل هذه الحالات؛ إذ إنها تساعدنا على توضيح أفكارنا لتصبح أكثر إقناعًا وتأثيرًا في قِيَمنا الخاصة، وصولًا إلى الإجماع على موقف موحد، مثلما حدث في العصر الحديث عندما اجتمع الناس على قبول المثل العليا للمساواة بين البشر، ولم يبقَ أحد يُؤيِّد فكرة العبودية سوى جماعة صغيرة ما زالت تعيش عقلية العصور الوسطى.

ربما توجد قيم عالمية في هذا الكون نظرًا إلى طبيعتنا الإنسانية المشتركة، وربما لا تكون القيم جميعها مشتركةً، ولما كان الخلاف عصيًّا على الحل فقد يكون لزامًا علينا الاعتراف بوجود أكثر من مجموعة واحدة

من القيم المستدامة الانعكاسية، قد لا يكون أيٌّ من الليبراليين أو المحافظين مخطئًا، وربما يُقدِّم كلاهما حلولًا منطقيةً لما يواجهه البشر من تعقيدات الحياة، ولكنَّ هذا لا يعني قبول أي شيء، مثل الفاشية والنازية.

مجمل القول هو أن محاكمة القيم لا تتطلب منا الخوض في مسائل غامضة، وأن النسبية والتعددية تُسهِمان في تقريب وجهات النظر، والنأي عن الذاتية التي لا تتورع عن قبول أي شيء؛ فلا يزال بمقدورنا رؤية بعض طرائق الحياة على نحوٍ أفضل من غيرها.

obeikandl.com